ذكورة اللغة الشارحة في كتابات علماء العربية القدماء[١]

د. محمد أحمد أبو عيد *

تاريخ تقديم البحث: ٢٠٠٧/٧/٢٢ تاريخ القبول: ٢٠٠٩/٧/١١

ملخص

تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن ذكورة اللغة الشارحة في ما تركه لنا علماء العربية القدماء من مكتوبـــات، وهي إذ تسعى لذلك، تنطلق من تلك المُسَلَّمة اللسانية الاجتماعية القائلة بجدلية العلاقة بين اللغة والثقافة، ومن ثـــم، فإن اللغة العربية عامة، جاءت ذكورية، تبعاً لذكورة الثقافة، وإذا كانت العربية لغة ذكورية، فإن اللغة التي وصفت وحللت بها هذه اللغة (اللغة الشارحة) جاءت ذكورية هي الأخرى، ومن ثم، راحت الدراسة تبحث عن نصوص في التراث اللغوي العربي تظهر ذكورية وانحيازاً جنسياً، جعلتها، أي الدراسة، تتسق مع المقولات اللسانية الاجتماعية المذكورة، أعلاه، وتؤكدها.

وجاءت النصوص التي دلّلت بها الدراسة على ذكورة اللغة الشارحة متنوعة، إذ شملت المـــستويات الـــصرفية والنحوية والمعجمية والدلالية، وهو تنوع يجعل مصطلح اللغة الشارحة مصطلحاً أكثر شمولية بتمدده إلـــى معظـــم المستويات اللغوية، وفي الوقت نفسه، فإن ذلك التنوع يجعل إمكانية تعميم ذكورة اللغة الشارحة أكثر علمية، وأكثر دقة لتنوع النصوص المدروسة.

الكلمات الدالة: " ذكورة، اللغة الشارحة، الثقافة، علماء العربية، اللسانيات الاجتماعية".

Abstract

Masculinity of MetaLanguage in the Writings of Old Arab Linguists

Dr. Mohammad Ahmad Abu Eid

This study seeks to reveal the masculinity of meta language in the writings of what old Arab linguists left of for this purpose, the study stems from that sociolinguistic hypothesis which states the controversial relationship between language and culture. Generally, Arabic is considenea to be masculine- as a result of the masculinity of culture, Since Arabic is a masculine language, the language which IS used to describe and analyze it , the (Meta Language) is also considesed masculine. The study proceeds to investigate texts in Arab linguistic heritage which manifested masculinity sex, and partiality.

The texts used in the study as examples on the masculinity of meta language have covered morphological, syntactic, lexical and semantic levels. This diversity has made the term of metalanguage this more comprehensive.

Keywords :Masculinity, MetaLanguage, Culture, Arab linguists, Sociolinguistics.

(١) قبلت هيئة تحرير المجلة هذا المقال ملحوظة علمية.

* قسم اللغة العربية، كلية إربد، جامعة البلقاء التطبيقية.

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة، الكرك، الأردن.

مقدمة

تقصد هذه الدراسة إلى الكشف عن ذكورة اللغة الشارحة في كتابات علماء العربية القدماء، عن طريق استعراض مجموعة من النصوص المُستقاة من التراث اللغوي العربي وتحليلها، وإذ تقصد الدراسة ذلك، فإنها لتنطلق من تلك المسلمة التقليدية التي يذهب إليها اللسانيون الاجتماعيون، والتي تجعل اللغة انعكاساً للثقافة في مجتمع معين، ومن ثم، فإن ذكورة الثقافة العربية قادت، بالضرورة، إلى ذكورة اللغة، بعامة، وذكورة اللغة الشارحة، خاصة، وهو ما تحاول الدراسة أن تُدعِّمه، عبر صفحاتها الآتية.

الدراسات السابقة

لا يعثر المرء إلا على محاولات قليلة تلج عالم اللغة وتبحث فيه عن موقع للأنثى إلى جانب موقع الذكر، وهي محاولات استهدفت الكشف عن ذكورة اللغة العربية، بعامة، دون التعرض، مباشرة، وعلى نحو شمولي، لدراسة النزعات الذكورية في اللغة الشارحة، عند علماء العربية القدماء[١]. ولعل أبرز تلك المحاولات، في هذا المضمار، ذلك الكتاب الذي أصدرته نوال السعداوي بعنوان: "الأنثى هي الأصل"، وهي دراسة سعت فيها السعداوي إلى الإطاحة بمقولات ابن جني، ومعه اللغويون العرب حول أصلية الذكورة. وكان الغذامي قد أخذ على السعداوي أن الضمير اللغوي المستخدم في الكتاب هو ضمير مذكر[٢]، وهو ما يتناقض وسعي الكتاب لتأصيل الأنوثة. ومن تلك المحاولات كتاب أحمد مختار عمر بعنوان "اللغة واختلاف الجنسين"، وبه حاول الباحث رصد معظم مناحي التحيز الذكوري في ميدان اللغة العربية، بوجه خاص، وفي اللغات البشرية عامة[٣]. ومن المحاولات البارزة، في هذا الإطار، محاولة عبد الله الغذامي في كتابه "المرأة واللغة"، إذ ناقش، فيه، فحولة لغة الخطاب العربي الأدبي، بوجه خاص، ونقد ذلك الربط بين هذه الفحولة والبلاغة، ومن ثم تعرض لسيطرة الذكر على كافة الأبنية اللغوية وأنساقها، بوجه عام[٤]. ومن المحاولات المتكررة لنقد ذكورة اللغة، عامة، تلك المقالات الصحفية التي ظهرت على صفحات جريدة الرأي الثقافي الأردنية، والتي قامت بتدشينها الكاتبة زليخة أبو ريشة، للتصدي للجنس المعياري الذكوري، ولمحاولة التخلص من العبودية اللغوية، كما جرى التخلص من العبودية البشرية[٥] لم تتصدَّ أي من هذه الدراسات لنقد ذكورة اللغة الشارحة أو فحولتها. على نحو مباشر وشمولي، ومن ثم فإن الدراسة تفترض أن ينطلق نقد ذكورة اللغة، عامة، من نقد أو محاولة نقد ذكورة اللغة الشارحة (لغة اللغة)، وعليه، يأتي هذا البحث، في هذا السياق، ليحاول نقد فحولة أو ذكورة اللغة الشارحة، تأسيسا للغة شارحة أخرى، تتساوى فيها الذكورة والأنوثة، ومن ثم فإن تحقيق المساواة في اللغة الواصفة للغة والشارحة لقواعدها، يمكن أن يقود إلى المساواة في اللغة والثقافة والفكر، بما هي اللغة انعكاس للثقافة والفكر معا.

إن البحث في غمار هذه الذكورة لابد له أن يسبق بنقاش تمهيدي نوضح به المفاتيح الرئيسة لهذه الدراسة، ومن ثم فإن العنوانات الثلاثة القادمة ستتصدى لهذه المهمة.

---

(١) الغذامي، عبد الله، **المرأة واللغة**، ط٢. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٧، ص.١٢.

(٢) الغذامي، عبد الله، **المرأة واللغة**، ط٢. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٧، ، ص ١٨-١٩.

(٣) عمر، أحمد مختار، **اللغة واختلاف الجنسين**. ط١، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٦، ص٨، وص ١٧، وص ٣٣.

(٤) الغذامي، **المرأة واللغة**، ص ١١- ١٢.

(٥) أبو ريشة، زليخة، **اللغة بين تذكير العالم وتأنيث الخطاب، صحيفة الرأي، الرأي الثقافي الأردنية**، العدد ١٢٨٢١، ٢٨ تشرين أول ٢٠٠٥ م، ص ٨، وللمزيد: انظر في مقال الكاتبة في الصحيفة نفسها، العدد ١٢٨٣٣.

الذكورة

يبرز مصطلح (الذكورة)، في هذا السياق بوصفه مصطلحاً مضاداً للأنوثة، بما يشتمل عليه مصطلح (الأنوثـــة) أو (الأنثوية) من دلالات، تتصل بالبحث عن موقع للأنثى إلى جانب موقع الذكر في اللغـــة، وفـــي كـــل البنيـــات الاجتماعية والثقافية، ولعل هذا المصطلح (الذكورة) يشير إلى ذلك الخطاب السائد، الذي يجعل الذكر هـــو مركـــز الحضارة البشرية في شتى مناحيها، ومن ثم فإن الخطاب الذكوري سوف يُؤَكِّد سلطة الرجـــل ويوطـــدها، وتبعيـــة المرأة وهامشيتها[١].

وكان الخطاب الذكوري قد تلقّى ضرباتٍ متتاليةً من قبل حركات ثقافية متعددة، لعل أبرزها الحركـــة النـــسائية (النسوية العالمية)، وهي حركة ناشئة في الفكر الغربي منذ القرن السابع عشر، ولها أبعاد متعددة تتصل بالمطالبـــة بحقوق المرأة[٢]، وفضح كل هياكل الهيمنة والذكورية وأشكال الظلم والقهر والقمع، وتفكيك النمـــاذج والممارســـات الاستبدادية، وإعادة الاعتبار للآخر الأنثوي المُهَمَّش والمقهور[٣].

وعليه، فقد أفرزت هذه الحركة النسوية العالمية مصطلحاً مضاداً للذكورة، هو مصطلح (النسوية) (feminism)، ويقصد به: كل جهد نظري أو عملي يهدف إلى مراجعة أو استجواب أو نقد أو تعديل النظام الذكوري السائد في كل البنيات الاجتماعية[٤]، ومنها اللغة، إذ ركّزت النسويّة على نظرة اللغة الدُّونيّة إلى المرأة، تلك النظرة التي انعكست في ألفاظها واستعمالاتها، مما جعلها تستحق أن تُسمَّى لغة ذكورية[٥]، وكانت النسوية قد أفرزت مصطلحات أخرى مرادفة للذكورة، منها (الجنسانية) (sexism)، وتعني: هيمنة أحد الجنسين، والتحيز له في سائر الأبنية؛ بسبب جنسه فقط[٦]، ومن تلك المصطلحات (التحيز اللغوي) (*Linguistic prejudice*)، وهو *ليس إلا* ذكورة أو جنسانية، ولكـــن في إطـــار البنية اللغوية[٧].

وهو تحيُز يدعونا هدسن (Hudson) أحد أكبر علماء اللسانيات الاجتماعية إلى مقاومته، لما يمكن أن يجلبه من مشكلات، وإن كانت تلك المقاومة لذاك التحيز لن تنهيه، كما يقول هدسن (Hudson) نفسه، ولكنَّها ســـتُخَفِّف مـــن وطأته[٨].

إن نقد الذكورة، سواء في ذلك أظهر في هذه الورقات أو ظهر في مواقع أخرى، من قبل بـــاحثين آخـــرين، لا يُقصد من ورائه إزاحة الذكر عن مجمل الأنشطة الثقافية واللغوية، وإحلال الأنثى مكانه، أي إنه ليس انقلابا ثقافيـــاً

---

(١) الخولي، يمنى، **أنثوية العلم**، من مقدمتها لكتاب ليندا جين شيفرد (Shefard)، **أنثوية العلـــم**، ترجمة: يمنـــى الخـــولي، ط١، مطـــابع السياسة، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، أغسطس ٢٠٠٤، ص١٠-١١.

(٢) إدريس، نجمة عبد الله، **مأزق المرأة الشاعرة**، قراءة في الواقع الثقافي، **عالم الفكر**، المجلد ٣٤، العدد ٢، ٢٠٠٥، ص١٨٢.

(٣) الخولي، **أنثوية العلم**، ص١٠-١١.

(٤) الخولي، **أنثوية العلم**، ص١٠-١١

(٥) عمر، **اللغة واختلاف الجنسين**، ص١٧.

(٦) الخولي، **أنثوية العلم**، ص٤٠.

(٧) هدسن(Hudson)، **علم اللغة الاجتماعي**، ترجمة: محمد عبد الغني عياد، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧، ص٣٢٣-٣٢٤.

(٨) **المصدر السابق**، ص ٣٢٦.

ولغوياً يزيح سلطة ويأتي بأخرى مكانها، بل إن المقصود من ذلك النقد هو القبول البشري بالتعددية الثقافية واللغوية، والاعتراف بالآخر، ومن ثم التكامل بين الجنسين، إنه نقد ضد الاستقطاب والتمركز الذكوري[١].

اللغة الشارحة

وهي لغة حول اللغة، أو هي اللغة التي تشرح بها قواعد اللغة، بما يشتمل عليه مصطلح القواعد في الدرس اللساني المعاصر من القواعد الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية حتى النَصِّيَّة، و(اللغة الشارحة) في ثنايا هذه الدراسة هي لغة عربية قديمة، أي هي اللغة التي أنتجها علماء اللغة العربية القدماء، عندما كانوا يصفون قواعد العربية ويحللونها. إن هذه الدراسة تسعى إلى الكشف عن ذكورة هذه اللغة عن طريق استعراض وتحليل النصوص التي جاءت بها اللغة الشارحة العربية.

الذكورة واللغة والثقافة

إن العلاقة بين المفردات الثلاث، أعلاه، كانت، وما زالت موضوعاً تدرسه عدة علوم، منها ما هو لساني، ومنها ما هو ليس كذلك، أو ليس محسوباً على ميدان اللسانيات، ولعل أبرز تلك العلوم غير اللسانية والتي عنيت بدراسة هذه المفردات (علم الاجتماع) (Sociology) (والأنثروبولوجيا) (Anthropology) و(الأنثروبولوجيا الثقافية) (Cultural Anthropology) و(علم الثقافة) (Culturalogy)[٢]؛ أما العلوم اللسانية فلعل أبرزها تناولاً للموضوع (اللسانيات الإثنولوجية) (Ethnolinguistics) و(اللسانيات النفسية) (Psycholinguistics) و(اللسانيات الاجتماعية) (Sociolinguistics) [٣]، ولعل الأخيرة تعد نفسها الوصية الشرعية من بين حقول اللسانيات على كل ما يتصل بطبيعة العلاقة بين اللغة والثقافة، ومنها موضوع هذه الدراسة. وعليه كانت اللسانيات، بعامة، واللسانيات الاجتماعية، بخاصة، وبشهادة غير اللسانيين، من أظهر العلوم التي شهدت مدّاً نسوياً لافتاً، انطلق من مسلمة معاصرة تقول: "إن اللغة ليست مجرد وسيط شفاف يحمل المعنى". وعليه، فإذا كانت اللغة قد انصاعت للثقافة وجسدت الذكورية المهيمنة، فإن ذلك الانصياع هو ما ينبغي نقده، من وجهة نظر النسوية، توطيداً للتحرر منه[٤]*.

إن اللسانيات الاجتماعية تسلم بوجود علاقة وثيقة بين اللغة والثقافة، وهي علاقة تأثر وتأثير[٥]، وذلك بغض النظر عمَّن له النصيب الأكبر في عملية التأثير تلك[٦]، وبغض النظر، أيضاً، عن محاولة تحديد في ما إذا كانت اللغة تمثِّل الجزء في مقابل الكل الثقافي، أو العكس.

---

(١) الخولي، **أنثوية العلم**، ص١٠.

(٢) بشر، كمال، **علم اللغة الاجتماعي، مدخل**، ط٣، دار غريب، القاهرة ١٩٩٧، ص٤١-٤٢.

(٣) **المصدر السابق**، ص٤١-٤٢، وانظر: هدسن (Hudson)، **علم اللغة الاجتماعي**. ص١٢، ولطفي، مصطفى، **اللغة العربية في إطارها الاجتماعي، دراسة في علم اللغة الحديث**، ط١، معهد الإنماء العربي، بيروت. ١٩٧٦، ص٧.

(٤) الخولي، **أنثوية العلم**، ص ٣٢.

* بالجملة، فإن عدد الدراسات المعنية باللغة والمرأة، واللغة والجنس في حقل اللسانيات، عامة، يقدر بعدة آلاف مكتوبة بغير العربية (للمزيد انظر: عمر، أحمد مختار، **اللغة واختلاف الجنسين**، ص٨).

(٥) بشر، **علم اللغة الاجتماعي، مدخل**، ص٢٣٦، وانظر هدسن (Hudson)، **علم اللغة الاجتماعي**، ص١٤٧.

(٦) **المصدر السابق**، ص ٢٤٠، وانظر: هدسن (Hudson)، **علم اللغة الاجتماعي**، ص ١٧٨، ووافي، علي عبد الواحد، **اللغة والمجتمع**. د.ط، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت ، ص١٦٢.

وبالنظر في واقع الثقافة العربية القديمة، يجد الدارس نفسه مع المسلّمين بذكورة تلك الثقافة، وربما بذكورة الثقافة الإنسانية القديمة، بوجه عام [١]، تلك الذكورة التي بدأت، كما يرى بعض الدارسين، مع اكتشاف الكتابة، إذ جاءت، أي الكتابة، نمطاً في صناعة اللغة وتقنية الخطاب، والشاهد التاريخي يشير إلى أن الرجل هو سيّد الكتابة، ولا يحفظ التاريخ البشري أمثلة وافرةً عن وجود نسوي فاعل مع اللغة المكتوبة، ومن هنا، فإن الرجل وجَّه مسار اللغة نحو وجه خاص، تحكم الذكور فيه، وخلدوه، عن طريق نقشه، وحفره في ذاكرة الثقافة الإنسانية، ومنها العربية، وصارت الذكورة جوهر اللغة ووجهها وضميرها[٢].

ويجدر بنا أن نشير في هذا السياق إلى أن اللسانية الأسترالية ديل سبندر (D. Spender) قد وضعت كتاباً بعنوان: "اللغة صنيعة الرجل" عام ١٩٨٠، وكانت قد ذكرت في هذا الكتاب أن اللغة تسهم في أسلوب إدراكنا للعالم، واللغة في هذا تعالج العالم كما يراه الرجل، لتصبح خبرة المرأة مهمشة [٣].

إن هذه الدراسة، إذ تُسلِّم مع الباحثين المعنيين بالأمر بذكورة الثقافة العربية، وانحيازها للرجل دون المرأة، لتُسلِّم مع علماء اللسانيات الاجتماعية بعلاقة التأثير والتأثر بين الثقافة واللغة، ومن ثم، فإنها تُسلِّم بانعكاس ذكورة تلك الثقافة العربية على اللغة العربية، وهي اللغة التي نقف فيها على ملامح ذكورية في عديد من قسماتها وتشكّلاتها، ولا أدلَّ على ذلك من مخاطبة المؤنث بصيغة ذكورية، ومن مخاطبة جمع من النساء فيهن ذكر واحد، ولو كان غير راشد، بصيغة الذكورة، وغير ذلك الكثير من الأمثلة. وعليه؛ فإن الدراسة تفترض أن اللغة التي شُرِحَت بها اللغة العربية (اللغة الشارحة) جاءت، ذكورية منحازة. ومن هنا، تجد الدراسة ضالتها في البحث عن نصوص لغوية تراثية، خطها علماء العربية القدماء، وهو يشرحون قواعد اللغة، نصوص تكشف، على نحو كبير، كيف أن تلك اللغة الشارحة جاءت ذكورية، تجسيداً للمسلمة اللسانية الاجتماعية القاضية بانعكاس الثقافة الذكورية على اللغة، بوجه عام، واللغة القواعدية الشارحة، بوجه خاص. إن الدراسة، إذ تسعى إلى الكشف عن ذكورة اللغة الشارحة، عبر مراجعة نصوص متنوعة للغويين عرب قدماء، فإنها تجعل ذلك السعي وتلك المراجعة والكشف عن الهيمنة الذكورية تمهيداً لا بد منه، للتخلص من ذلك التحيز الذكوري، ولو في الحد الأدنى الممكن، إذ سيكون هذا التخلص، كما يرى الدارس، تمهيداً، هو الآخر، للتخلص من ذكورة اللغة، بوجه عام، مع الأخذ بعين الاعتبار مقولات علماء اللسانيات الاجتماعية، بوجه خاص، وعلماء آخرين حول إمكانية أن يحدث التغيير اللغوي تغييراً في البنى الثقافية والاجتماعية المختلفة[٤]، ومن ثم فإن أي تغيير أو انقلاب على ذكورة اللغة الشارحة خاصة واللغة عامة هو تغيير وانقلاب على ذكورة الثقافة، ومن ثم فإن الهدف النهائي الذي تسعى إليه هذه الدراسة هو مقاومة ذكورة الثقافة، والبحث عن موقع للأنثى إلى جانب الرجل في سبيل تحقيق تقدم اجتماعي منشود.

---

(١) عمايرة، إسماعيل، **ظاهرة التأنيث في اللغة العربية واللغات السامية، دراسة لغوية تأصيلية**، ط١، مركز الكتاب العلمي، عمان ١٩٨٦، ص ٢٤، وانظر: الخولي، **أنثوية العلم**، ص١٣.

(٢) الغذامي، **المرأة واللغة**، ص٢٦-٢٧.

(٣) نقلا عن الخولي، **أنثوية العلم**، ص٢٦-٢٧.

(٤) هدسن (Hudson)، **علم اللغة الاجتماعي**، ص ١٧٨.

*** ذكورة اللغة الشارحة في كتابات علماء العربية القدماء**

ينطوي القادم من السطور على التدليل على ذكورة اللغة الشارحة عند علماء العربية القدماء بوصف وتحليل نصوص تراثية وتحليلها، والدراسة إذ تقصد ذلك، فإنها ستوزع النقاش في ذلك على محاور متوالية، فيما يأتي بيانها:

- أصلية التذكير وفرعية التأنيث

نظرة عجلى في الصفحات الأولى لكتاب سيبويه ترينا أنه قرر أن التذكير أصل، والتأنيث فرع عليه، قال سيبويه: "اعلم أن المذكر أخفُّ عليهم من المؤنث، لأن المذكَّر أول، وهو أشد تمكُّناً، وإنما يخرج التأنيث من التذكير ..."(١).

هذه الفكرة التي أسَّس لها سيبويه في أول كتاب نحوي مكتوب(٢)، تجدها تتكرر عند معظم اللغويين العرب ممن اطّلع الدارس على ما تركوه لنا من مصادر، وانطلاقاً من رسوخ هذه الفكرة الأساس في أذهان اللغويين العرب راحوا يتعاملون مع كثير من الموضوعات اللغوية المرتبطة بالتذكير والتأنيث بناء على هذا المعيار: المذكر أصل، والمؤنث فرع، أو كما قال سيبويه، في إعادة تصوير لبدء الخليقة: خرج التأنيث من التذكير، فسيبويه نفسه، وفي باب "هذا باب تسميتك الحروف بالظروف وغيرها من الأسماء" يقول: "ولو لم تجد في هذا الباب ما يؤكد التذكير لكان أن تحمله على التذكير أولى حتى يتبين لك أنه مؤنث"(٣). إن الحمل، هنا، هو إعادة اللفظ إلى أصله قبل أن يتسم بالتأنيث، والإعادة للأصل لن تكون، بالضرورة، خروجاً عن المعيار.

ومما يتسق مع مقولة سيبويه الأخيرة أن ابن جني في مناقشته لباب تذكير المؤنث يقول: "إن تذكير المؤنث واسع جداً، لأنه ردٌّ إلى الأصل"(٤).

وفي الإطار التأصيلي نفسه يقول أبو بكر بن الأنباري، وفي باب الجمع بين المذكر والمؤنث: اعلم أن المذكر والمؤنث إذا اجتمعا غُلِّب المذكر على المؤنث، تقول من ذلك: الرجل والمرأة قاما وقعدا وجلسا، ولا يجوز قامتا وقعدتا وجلستا؛ لأن المذكر يغلب المؤنث؛ لأنه هو الأصل، والمؤنث مزيد عليه، فالمزيد عليه هو الأصل(٥).

ويجدر بنا أن نشير، في هذا السياق، إلى أن فكرة أصلية التذكير وفرعية التأنيث ظلَّت فكرة راسخة ومتداولة على نحو واسع في كتابات اللغويين العرب المعاصرين(٦)، رغم ما تعرضت له هذه الفكرة من نقود دارسين آخرين رأوا فيها استلاباً لأنوثة اللغة، بتذكيرها، وردِّها إلى أصلٍ مفترض (٧). في حين أن المطلوب هو إحلال الأنوثة

---

(١) سيبويه، أبو بشر، عمرو بن عثمان بن قنبر، ت. ١٨٠هـ- ٧٩٦م، **الكتاب**، تحقيق: عبد السلام هارون، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٨م، ج١، ص٢٥.

(٢) **المصر السابق**، ج ٣، ص٢٤١.

(٣) **المصر السابق**، ج ٣، ص ٢٦٨.

(٤) ابن جني، أبو الفتح عثمان، ت ٣٩٢هـ -١٠٠١م، **الخصائص**، تحقيق: محمد علي النجار، ط٤، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٩٠، ج٢، ص٤١٣.

(٥) ابن الأنباري، أبو بكر، ت ٣٢٨هـ -٩٣٩م، **المذكر والمؤنث**، تحقيق: طارق عبد عوني الجنابي، ط١. مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٨، ص٦٧٦.

(٦) شاهين، عبد الصبور، **المنهج الصوتي للبنية العربية، رؤية جديدة في الصرف العربي**، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ت. وانظر: بركات، إبراهيم، **التأنيث في اللغة العربية**، ط١، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ١٩٨٨، ص ٣٥.

(٧) الغذامي، **المرأة واللغة**، ص١٦.

بإزاء الذكورة، بوصف الصفتين معاً قيمتين إبداعيتين تَحظَيَان بالدرجة نفسها من الاحترام والجِدِّيَّة، ومن ثم لا يكون الأصل اللغوي بالتذكير فقط، بل إن الأنوثة، هي الأخرى أصل لُغَوي يقف بإزاء الأصل الذكوري وبوازيه[١].

على أية حال، فإن رسوخ هذه الفكرة في أذهان علماء العربية القدماء جعلهم، كما سبق وأشرنا، يتعاملون مع أبواب نحوية أخرى كثيرة، انطلاقاً من هذه الفكرة الأصل والأساس، بل إن تفسيراتهم لكثير من الظواهر انطلقت من هنا، وهو ما ستحاول الدراسة كشفه، في ما يأتي من عنوانات.

"الجمع" بين الذكورة والأنوثة

من نافلة القول أن الجمع في العربية ينقسم إلى جمع قياسي وجمع غير قياسي، أما الجمع غير القياسي، فاصطلح على تسميته بجمع التكسير، وأما الجمع القياسي، فانشعب، بدوره، إلى جمع مذكر وجمع مؤنث سالمين، ومن الدلالة الأولية للاصطلاح يلحظ الناظر أن كل واحد من الجمعين القياسيين يضم طائفة من الأسماء المجموعة: إما مذكرة وإما مؤنثة؛ غير أن تفحص الأمر يظهر الأمر على خلاف ما هو مُتَوقَّع.

فقد جعلت الجموع المذكرة السالمة منطقة محرمة على غير العاقل والحيوان [٢]، وإن كانا من المذكر، إذ هي خاصة بالمذكر العاقل فحسب. ويشترط فيمن سينضوي تحت لواء هذه الجموع، أن يكون مُذَكَّراً عاقلاً وخالياً من تاء التأنيث والتركيب[٣]، وكذلك يشترط في الصفة التي تجمع جمع مذكر سالماً أن تكون صفة لمذكر عاقل خالية من تاء التأنيث[٤]، بل لا يجوز أن تكون الصفة المجموعة على هذا الجمع مما يستوي فيه المذكر والمؤنث من الصفات[٥]، كصبور وشكور وشهيد وجريح...، إن هذه الشروط، وكما يرى أحد الدارسين والباحث على وفاق معه في هذا الإطار، تحصن الذكورة من شوائب التأنيث والحيوانية[٦]. أما المقصود بالعاقل فهو أن لا يكون عاقلاً بالفعل، وإنما المراد أنه من جنس كالآدميين والملائكة، وبذلك يشمل مفهوم العاقل، هنا، المجنون الذي فقد عقله والطفل الصغير الذي لم يظهر أثر عقله، بعد، وقد تجمع غير العاقل تنزيلاً له منزلة العاقل، إذا صدر منه أمر، لا يكون إلا من العقلاء، فيكون جمع مذكر[٧]. وعليه؛ يحق للمجنون والطفل وكذا الحيوان الذكي أن يقترب من جمع المذكر السالم، فينضوي تحته، أما الأنثى، فلا يمكن لها أن تقترب من هذا الحصن الذكوري، وأن يشتمل هو عليها[٨].

---

(١) الغذامي، **المرأة واللغة**، ص ١٢.

(٢) **المصدر السابق**، ص ٢٥.

(٣) ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله، ت ٦٧٢هـ - ١٢٧٣م، **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك**، ط١، دار الخير، بيروت، ١٩٩٠، ج١، ص ٥٧.

(٤) **المصدر السابق**، ج١، ص ٥٨.

(٥) **المصدر السابق**، ج١، ص٥٨.

(٦) الغذامي، **المرأة واللغة**، ص٢٥.

(٧) حسن، عباس، **النحو الوافي مع ربطه بالأساليب الرفيعة والحياة اللغوية المتجددة**، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٥، ج١، ص١٤٠.

(٨) الغذامي، **المرأة واللغة**، ص ٢٥.

إن للأنثى ولكل اسم اقترن بعلامة أو أثر للتأنيث مظلة أخرى هي جمع المؤنث السالم، وهو الجمع الذي يوحي ظاهره بأنه مملكة نسوية خاصة، في حين أن باطن هذه المملكة لا يعود نسوياً، إذ إنك تجد أن مفرد هذا الجمع قد يكون مذكراً، ومن ثم راح بعض اللغويين يطلقون على هذا الجمع تسمية الجمع بألف وتاء مزيدتين [1]، بما في هذه التسمية من إلغاء للنسوية ولو في ظاهر العبارة. ولعل أحد المعاصرين يؤيد هذا الإلغاء للظاهر النسوي في جمع المؤنث السالم، من باب نقده لذكورة اللغة الشارحة واللغة عامة، إذ يرى أن احتمال قيام جمع المؤنث السالم على مفرد مذكر، يستلزم إلغاء مصطلح الأنوثة عنه، وبذا، فإن التذكير يأتي من داخل التأنيث؛ لكي يحرف وجه اللغة عن الأنوثة، ويحيلها إلى الذكورة[2]. إن أول تناول لجمع المؤنث السالم عند اللغويين العرب؛ هو أنه خارج عن الأصل الذكوري، أي هو فرع من جمع المذكر السالم، يقول ابن هشام: "الباب الثاني مما خرج عن الأصل، ما جمع بألف وتاء مزيدتين، سواء كان جمعاً لمُؤنَّث، نحو: هندات، زينبات أو جمعاً لمذكر، نحو: اصطبلات وحمامات" [3].

وإذا كان المؤنث السالم جمعاً فرعياً تابعاً لأصله الذكوري، فإنه سيظل بكل تشكُّلاته تابعاً له، أي للمذكر السالم، بل وسيحتفظ هذا الجمع بعلامات ذكورية. ولعل تلك الهيمنة الذكورية على المؤنث السالم، وتلك التبعية للمذكر السالم، تبرز في تناول الأقدمين لتنوين المقابلة، وهو تنوين لاحق لجمع المؤنث السالم، نحو: مسلمات، إذ هو، وكما يرى اللغويون العرب القدماء، في مقابلة النون في جمع المذكر السالم، كمسلمين[4]، ولعل النصب على هذا النحو يشي بتلك التبعية، التي رسختها اللغة الشارحة. وفي موضع آخر يرسخ التبعية، أيضاً، يجعل علماء العربية القدماء تاء الجمع في الجر والنصب مكسورة؛ لأنهم جعلوا التاء، التي هي حرف الإعراب، كالواو والياء والتنوين بمنزلة النون؛ لأنها في التأنيث نظيرة الواو والياء في التذكير؛ فأجروها مجراها[5]، والتبعية، هنا، عند سيبويه، نقع من باب التناظر بين جمعي المذكر والمؤنث السالمين.

إن إعراب جمع المؤنث السالم بالحركات على القياس، وليس الأمر فيه كالتثنية والجمع اللذين إعرابهما بالحروف، وإذا كان إعرابه بالحركات، فرفعه في الضم، نحو: هذه مسلمات، وفي الجر: مررت بمسلمات، والنصب محمول على الجر، فيكون في موضع النصب مكسوراً، وإنما حمل النصب فيه على الجر لوجهين، أحدهما: أن جمع المؤنث السالم فرع على جمع المذكر السالم، فكما حمل منصوب جمع المذكر على مجروره، في مثل: مررت بالزيدين، ورأيت الزيدين، كذلك حمل منصوب جمع المؤنث السالم على مجروره، في مثل: مررت بالمسلمات، ورأيت المسلمات، ليكون الفرع على منهاج الأصل، ولا يخالفه، وذلك، كما ينص ابن يعيش، من باب المشابهة[6]، وهي أي المشابهة، عند ابن جني، تشابه وتجانس وحمل للفرع على الأصل، بل هي عند ابن جني، أمر، إذا ما تأملته، عرفت منه قوة عنايتها بهذا الشأن ...، ومن ثم، فإن العرب كانوا قادرين على أن يفتحوا التاء، فيقولوا: "رأيتُ الهنداتَ"، فلم يفعلوا ذلك، مع إمكانه، وزوال الضرورة التي عارضت في المُذَكَّر عنه، فدل دخولهم تحت

---

(١) الغذامي، **المرأة واللغة**، ص٢٥.

(٢) **المصدر السابق**، ص ٢٦.

(٣) ابن هشام، أبو محمد عبدالله جمال الدين ت ٧٦١ هـ- ١٣٥٩م، **شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب**، د.تح، د.ط، دار الفكر، د.ت، ص٣٩.

(٤) ابن عقيل، **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك**، ج١، ص ٢٢، وانظر: ابن هشام، **أوضح المسالك**، ص١١.

(٥) سيبويه، **الكتاب**، ج ١، ص ١٨.

(٦) ابن يعيش، موفق الدين، ت٦٤٣ هـ-١٢٤٥م، **شرح المفصل**، د.ت، د.ط، عالم الكتب، بيروت، د.ت، ج٥، ص ٨.

هذا، مع أن الحال لا تضطر إليه، على إيثارهم واستحبابهم حمل الفرع على الأصل، وإن عري من ضرورة الأصل، وهذا جلي، كما ترى[١].

إن وجود علامة واحدة للجر والنصب في المؤنث السالم ليس من باب التبعية للمذكر السالم، بقدر ما هو نطق لُغَويٌ استَسَاغَهُ ابن اللغة الأم، بدليل أن ابن هشام يناقض المقولات السابقة بقوله: إن المؤنث السالم ربما نصب بالفتحة، إن كان محذوف اللام، كسمعت لُغاتهَم[٢].

وهو ما يجيزه بعض البغداديين ممن أنشد لأبي ذؤيب قوله:

فَلمَّا اجتَلاها بالأيامِ تَحَيَّزَت

ثُباتاً عَلَيْها ذُلُّها وانكِسارُها

وحكوا، أيضاً: سمعت لغاتهم، وإن كان ابن يعيش يرى أن لا حُجَّة لهم في ذلك؛ لاحتمال أن يكون لغات وثبات واحداً[٣]. وإمعاناً في جعل المؤنث السالم تابعا للمذكر، ومهيمناً عليه من أصله الذكوري، جوَّزَ الكوفيون جمع العلم المؤنث بالتاء جمع مذكر سالماً، كما في طلحة، مثلاً، لأنه في التقدير جمع طَلْح، لأن الجمع قد تستعمله العرب على تقدير حذف حرف من الكلمة ...، وإذا كانت الهاء في تقدير الإسقاط، جاز جمعه بالواو والنون[٤]. إن وجهة النظر الكوفية وإن كانت في ظاهرها تتناقض وما سبق بسطه في بداية الحديث عن جمع المذكر السالم، وإقصاؤه لكل ما علق به علامة من علامات التأنيث، فإنها في باطنها، ومن جهة الفكرة، عامة، تنسجم مع ما تذهب إليه الدراسة من ذكورة اللغة الشارحة؛ فالفكرة التي يراها الكوفيون تقوم على عدم التفريط بفرد كان الأصل فيه أن ينضوي تحت لواء الذكورة، لأنه مذكر، ولم ينضو؛ لأنه جاء ملحقاً به علامة من علامات التأنيث، وعليه؛ فالفكرة الكوفية هي أصلية التذكير وهيمنته، وعدم جواز أن ينضم مذكر لجمع مؤنث، وهو ما ينسجم والفكرة البصرية النقيضة في ظاهرها لفكرة الكوفيين، عندما لم يجوزوا جمع العلم المؤنث بالياء جمع مذكر سالماً، لأن في الواحد علامة تأنيث، والواو والنون علامة تذكير، فلو قلنا إنه يجوز أن يجمع بالواو والنون، لأدى ذلك إلى أن تجتمع في اسم واحد علامتان، وذلك لا يجوز [٥].

أبنية شتم المؤنث

يقول ابن عقيل في شرحه: "... ينقاس في النداء استعمال "فعالِ" مبنياً على الكسر في ذم الأنثى وَسبِّها في كل فعل ثلاثي، نحو: يا خباثِ ويا فساق ويا لكاعِ[٦]، هذا في سب الأنثى وشتمها، أما سَبُّ الذكر، فيقول ابن عقيل

---

(١) ابن جني، **الخصائص**، ج١، ص ١١٢.

(٢) ابن هشام، **أوضح المسالك**، ص ٢٨.

(٣) ابن يعيش، **شرح المفصل**، ج٥، ص ٨.

(٤) الأنباري، أبو البركات، ت ٥٧٧ هـ - ١١٨١م، **الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين**، د.ط، دار الفكر، د.م.ن، ج١، ص٤٠.

(٥) **المصدر السابق**، ص ٤١.

(٦) ابن عقيل، **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك**، ج٢، ص٢٣٤.

فيه: "وكثر استعمال فُعَل في النداء، خاصة، مقصوداً به سب الذكور نحو: يافُسَقُ ويا غُدَر ويا لُكَعُ، ولا ينقاس ذلك"(١).

إن النص، أعلاه، ليجعل البناء الخاص بالأنثى وشتمها بناءً يجوز القياس عليه، في حين يجعل بناء سب الذكور بناءً خاصاً بألفاظ محددة، تحفظ ولا يقاس عليها، وهو أمر فيه ما فيه من التحيُّز الجنسي للذكورة.

وفي بنية "فُعْلى" الأنثوية يقول السيوطي: لم يجئ في نعوت المذكر شيء على فُعْلى سوى حمار حيدى، أي: يحيد عن ظله، لنشاطه، ويقال: كثير الحيود عن الشيء(٢).

وفي باب ذكر ما جاء بالهاء من صفات المذكر، يقول السيوطي نفسه: "قال ثعلب في فصيحه: نقول: رجل راوية للشعر وعلامة ونسابة، ومحذامة، ومطراية، ومعزابة، وذلك إذا مدحوه، فكأنهم أرادوا به داهية، وكذلك إذا ذموه، فقالوا: لحانة، وهلباجة، وفقاقة، وصخابة، في حروف كثيرة، كأنهم أرادوا به بهيمة (٣).

إن أضراب هذه النصوص، إذ تربط بين الأنوثة وصفات معينة، فإنها قد لا تحتاج لنقاش تفصيلي، بقدر ما تحتاج لأن تترك نصوصا مفتوحة للقارئ، يرى ما يرى فيها من تحيز جنسي واضح لقيم الذكورة وخصائصها.

الذكورة في أبنية التصغير

يتفق الصرفيون العرب على أن الأسماء المؤنثة دون علامة تأنيث تحتوي في بنيتها العميقة تاء مقدرة، وهي التاء التي تظهر في هذه الكلمات عند تصغيرها، كما في: قديمة تصغير قدم(٤)؛ إذ لا يجوز، وفق رؤية أولئك الصرفيين، أن يكون الاسم مؤنثاً دون علامة، وإلا التبس بغيره من الأسماء المذكّرة، أو تخيل الناظر، بعجالة، أن ذاك الاسم هو المذكر، وهو ما لا يجوز، وفق العقلية الذكورية السائدة في اللغة الشارحة، عند علماء العربية القدماء.

وقد استقامت هذه الرؤية التقليدية بوجود تاء مقدرة تظهر في بنية التصغير في معظم الكلمات المؤنثة دون علامة تأنيث، ومن ثم، فإن علماء الصرف القديم راحوا يمعنون النظر في بعض الكلمات التي خرجت على تلك الرؤية، من مثل الناب والحرب والفرس ودرع الحديد والعود والعِرْس والعرب (٥).

ولأن هذه الكلمات لا تظهر فيها تاء التأنيث عند تصغيرها، علماً أن العرب تؤنثها جميعاً، راح الدرس اللغوي القديم، بعقليته الذكورية، يفسر ذلك، بارتباط الكلمات، المشار إليها، أعلاه، بملامح ذكورية حالت دون ظهور العلامة، أو لنقل تضاربت مع وجودها، وفي ذلك يقول ابن يعيش: "وقد شذت أسماء، فجاءت مصغرة على حد مجيئها مُكبَّرة من غير علامة، وذلك ستة أسماء، منها ثلاثة أسماء، قد ذكرها سيبويه، وهي الناب للمُسِنَّة من الإبل، والحرب، والفرس، فإذا حقَّرتها، قلت: نُيَيبٌ وحُرَيْب وفُرَيس، فأما الناب من الإبل، فإنما قالوا نييب، لأن الناب من الأسنان مذكر، وإنما قيل للمُسِنَةَ من الإبل ناب؛ لطول نابها، فكأنهم جعلوها الناب من الأسنان، وأما الحرب، فمصدر وصف به كقولهم: رجل عدل...، وأما الفرس فاسم مذكر، يقع على المذكر والمؤنث، كالإنسان والبشر في وقوعه على الرجل والمرأة، فصُغِّر على أصله، فلو أريد الأنثى لم يقل إلا فريسة، وأما الثلاثة الأخر فحكاها أبو عمر الجرمي، وهي درع الحديد، كأنهم لحظوا فيها معنى التذكير، فصغرت من غير علامة تأنيث، فالدرع قميص

(١) ابن عقيل، **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك**، ج٢، ص ٢٣٤ – ٢٣٥، وانظر: ابن هشام، **شرح شذور الذهب**، ص٩٢.

(٢) السيوطي، جلال الدين ت ٩١١ هـ– ١٥٠٥م، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط٣، دار التراث، القاهرة، د.ت، ج٢، ص١١٢.

(٣) **المصدر السابق**، ج٥، ص ٢٠٥.

(٤) ابن يعيش، **شرح المفصل**، ج٥، ص١٢٧.

(٥) **المصدر السابق**، ص١٢٧.

والفرس عود، والعرس تعريس ووقت، والعرب مؤنثة، كأنهم ذهبوا إلى البادية، فلـذلك قـالوا العـرب العاربـة، وصغروه من غير إلحاق تاء، فقالوا: عريب [١].

تذكير المؤنث وتأنيث المذكر

بعقلية مولعة بالافتراض النظري، يرى ابن جني أنه لو دعا داع أو حمل حامل على تأنيث نحو: قائمة ومسلمة، لكان طريقه على ما رأينا، أن نعيده إلى التذكير، فنقول قائم ومسلم، أي إن الرجل يعيد الكلمة إلى أصـلها، وهـو، هنا، يقرر المعادلة الآتية:

تأنيث التأنيث = تذكير

هذا، وكما يقول ابن جني، لو سوَّغ مُسَوِّغ تأنيث نحو قائمة وكريمة، وما إلى ذلك[٢].

وإمعاناً منه في الافتراض، يرى ابن جني أن قائلاً قد يقول: ووفقا للمعادلة السابقة، إن تذكير المُذَكَّر يؤدِّي إلـى أن تُؤَنَّث الكلمة، وهو قول يراه ابن جني فاسداً، ووضعا غير مُتَقَبَّل، وذلك أن التذكير هو الأول والأصل، وليس لك التراجع عن الأصول؛ لأنها أوائل، وليس تحت الأصل ما يرجع إليه، وليس كذلك التأنيث، لأنه فرع على التـذكير، وقد يكون الأصل واحداً، وفروعه متضاعفة ومُتَصَعِّدة، فلذلك جاز عند ابن جني تَصَوُّرَ تأنيث المؤنث، ولـم يجـز تصوُّر تذكير المذكر[٣].

وذلك أنه لو جاز تصور تذكير المذكر، لأوجب فيه القياس أن يعاد به إلى التأنيث، كذا وجه النظر، وما في هذا من المنكر، فعلى هذا السَّمْت لو ساغ تذكير قائم، لوجب أن يقال فيه قائمة[٤]، وهو مالا يمكن أن تتخيلـه العقليـة الذكورية السائدة في مشروحات اللغة العربية وقواعدها.

وفي سياق جمع بعض الكلمات بين التذكير والتأنيث يرى سيبويه أن "أبوان" تشير إلى "الأب" و"الأم"، وذلك لأن العرب جمعوا بين أب وأبة في "أبوان"، واستغنوا عن الأبة بالأم، مع أن الأصل، كما يقول سيبويه، أن نقول بدلاً من أم: أبة[٥].

إن الناظر، إذ تقع عينه على كلام يجعل فيه سيبويه لفظ "الأم"، وهو من أخص الألفاظ اتصالاً بالأنوثـة، لفظـاً تابعاً للذكورة، مُمَثَّلة "بالأب"، على اعتبار ذلك هو الأصل، فإن عينه لا تغفل عن كلام ورد علـى ألـسنة علمـاء العربية القدماء، جعلوا فيه تأنيث المذكر قبيحاً ومرفوضاً، فهذا ابن يعيش يعرض قول الشاعر:

يا أيها الراكب المُزْجِي مطيته سائل بني أسد ما هذه الصوت

وهو في عرضه لذلك القول يتوقف عند تأنيث الشاعر للفظ الصوت، وهو اللفظ المذكر، عن طريق الإشارة إليه باسم الإشارة الخاص بالأنثى "هذه"، وكان من حقه أن يقول: ما هذا الصوت...، فارتكب، بذلك، أقبح الـضرورات، وهي تأنيث المذكر[٦].

الذكورة في الشرح المعجمي

ظهر التحيز الجنسي للذكورة في لغة علماء العربية القدماء، وهم يشرحون بعض المفردات المعجميـة؛ فلفـظ السلطان يراه جمهور اللغويين العرب للمذكر والمؤنث، وينسلخ عن هذه الرؤية الفرَّاء، إذ إنه يرى أنه مع التـذكير

(١) ابن يعيش، **شرح المفصل**، ص ١٢٧.

(٢) ابن جني، **الخصائص**، ج ٢، ص ٢٤٥.

(٣) **المصدر السابق**، ص ٢٤٥.

(٤) **المصدر السابق**، ص٢٤٥- ٢٤٦.

(٥) سيبويه، **الكتاب**، ج ٢، ص ٢١٢.

(٦) ابن يعيش، **شرح المفصل**، ج ٥، ص ٩٥.

أعلى، وذلك بخلاف من يقول من العرب قضت علينا السلطان[1]، ومن ثم، فإن الفرَّاء إذ يربط بين السلطان والعلو، يجعل ذاك العلو خاصا بالذكر، ولا يجوز أن يرتبط بالأنثى.

وفي سياق معجمي آخر، ينقل ابن الأنباري عن السجستاني أنه يُسَوِّي بين لفظي كفيل وأمير، ويعقب ابن الأنباري على ما ذهب إليه السجستاني بالقول: إن ذلك غلط منه، لأن الإمارة لا تكاد تكون في النساء والكفالة تكون في الرجال والنساء[2]، ومن ثم، فإن ارتباط لفظ الإمارة بالسيادة والعلو والهيمنة، هو ما دعا ابن الأنباري، لمحاولة أن ينأى به عن الأنوثة التي لا تنسق، وفق العقلية الذكورية الشارحة، مع المعاني المشار إليها، أعلاه.

ومثل ذلك أن جعل أكثر أهل اللغة لفظ "القوم" للرجال دون النساء، فقد سمع ابن فارس علياً بن إبراهيم يقول سمعت ثعلباً يقول: يقال امرؤ وامرآن وقوم[3]، وامرأة وامرأتان ونسوة، وسمعت عليا يقول: سمعت المفسر يقول: سمعت عبدالله بن مسلم يقول : القوم للرجال دون النساء، ثم يخالطهم النساء، فيقال: هؤلاء القوم قوم فلان، ولا يجوز للنساء فيهن رجل: هؤلاء قوم فلان، ولكن يقال: هؤلاء من قوم فلان، لأن قومه رجال، والنساء منهم[4]".

إن قولك، هنا، عن مجموعة من النسوة: هُنَّ من قوم فلان، هو ترسيخ لتبعيَّة الأنثى للذكر، وإقرار بهيمنة الأخير على الأنوثة؛ وهو، في الوقت نفسه، إقصاء للأنثى عن أن تقع تحت مظلة لفظ "قوم"، مع الأخذ بعين الاعتبار، ما يشتمل عليه لفظ القوم، من معان ذكورية، وفق الثقافة التي أنتجت تلك اللغة الشارحة، إن ذلك ليتضح في تعقيب ابن فارس على ما نقل حول لفظ " القوم"، والتصاقه بالذكورة، إذ يقول: "وإنما سُمِّي الرجال دون النساء قوماً؛ لأنهم يقومون في الأمور وعند الشدائد[5]، ومثل القوم قولك: نفر، إذ هو خاص بالذكورة، أيضاً، لأن النَّفر لا يدل إلا على رجال، ينفرون مع الرجال إذا استنفروا[6].

ولعل أحد الدارسين المعاصرين كان موفقاً إلى حد كبير عندما استشهد على أثر الثقافة الذكورية باللغة الشارحة ومجيئها ذكورية، بقول بعض المفسرين واللغويين تعليقا على قوله تعالى { **إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ**}* يقال شيخ مفند، أي قد فسد رأيه، ولا يقال عجوز مفندة، لأن المرأة لم يكن لها رأي قط أصيل، فيدخله التفنيد [7].

وكأن العقل والرأي ورجاحته قيم تتصل بالذكر، دون الأنثى، وفق ما تراه اللغة الشارحة العربية القديمة، وهي رؤية جعلتها تربط لفظ "الرجولة" بصفات محبوبة، من مثل تلك الصفات المشار إليها، أعلاه، وعليه أطلق على عائشة أم المؤمنين: رجلة العرب[8].

إن النقاش في المحاور السابقة ليقودنا إلى التسليم بذكورة اللغة الشارحة لعلماء العربية القدماء، وانحيازها جنسياً للذكر، ومن ثم، فإن ذكورة هذه اللغة ما هي إلا انعكاس لذكورة الثقافة العربية، وهو ما يجعل البحث مُتَّسقًا مع المقولات الأساسية للسانيات الاجتماعية التي ورد عرضها في مُقَدِّمات البحث الأولى.

---

(١) ابن يعيش، **شرح المفصل**، ج ٥، ص ٩٥.

(٢) ابن الانباري، أبو بكر، **المذكر والمؤنث**، ص ١٤٨ –١٤٩.

(٣) ابن فارس، أحمد ت ٣٥٩هـ– ١٠٠٤م، **الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها**، تحقيق: عمر الطباع، ط١، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٩٣، ص١٩٤.

(٤) **المصدر السابق**، ص ١٩٥.

(٥) **المصدر السابق**، ص ١٩٥.

(٦) **المصدر السابق**، ص ١٩٥.

(*) **سورة يوسف**، ٩٤.

(٧) الغذامي، **المرأة واللغة**، ص ٣٩.

(٨) **المصدر السابق**، ص٣٩.